فى تاريخ النحو

للدكتور عبد الحميد حسن الجندى

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

لقد كان من حدوث اللحن ما حمل القوم على الاجتهاد لحفظ العربية وتيسير تعلمها للأعاجم ، فشرعوا يتكلمون فى الاعراب وقواعده حتى تم لهم مع الزمن هذا العلم . وتجمع المصادر على أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها نما واتسع وتكامل وتفلسف ، وأن رءوسه كلهم بصريون .

وأول من أرسل فى النحو كلاما أبو الأسود المتوفى سنة ٦٧ (١) . وقد أفاض ابن النديم وابن الأنبارى فى أولية وضع النحو وسبب ظهوره ، وهو كلام طويل معروف (٢) ويؤخذ منه أنه قيل ان عليا كرم الله وجهه هو الذى ألقى على أبى الأسود شيئا من أصول النحو ثم قال له : « انح هذا النحو » . وقيل ان أول من تكلم فيه نصر بن عاصم وقيل عبد الرحمن بن هرمز ، وقيل لم يصل الينا شىء قبل يحيى بن يعمر وابن أبى اسحاق الحضرمى .

وان من يقرأ بامعان ترجمة أبى الأسود فى كتب التراجم ، ثم يفكر فى توارد أكثر المصادر على اعتباره واضع الأساس فى بناء النحو لا يستبعد ذلك . فالرجل ذو ذكاء نادر وعقل حصيف ، ثم هو بليغ أريب مرن الذهن . وحسبك اختراعه « الشكل » الذى عرف بنقط أبى الأسود . ولا شك أن الشكل أجدى على حفظ النصوص من حدود النحو ، وقد سبق السريان أبا الأسود فى وضع ضوابط للحركات فى لغتهم ، ومن الجائز أن يكون أبو الأسود قد استأنس بهم حين هم بوضع الشكل وقد كانوا يملئون البصرة فى زمنه (٣) .

---

(١) المعارف ١٩٢
(٢) أنظر الفهرست ٣٩ وطبقات الأدباء ص ٣
(٣) محاضرات الأستاذ جويدى ص ٨٣

ومهما يكن من شيء ، فان هؤلاء الذين ينسب اليهم الأولوية فى وضع النحو فى بعض الآراء مثل نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون الأقرن كلهم تلاميذ أبى الأسود أو تلاميذ تلاميذه ، عنه أخذوا العربية والقراءة بالبصرة. وعن هؤلاء أخذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة . ثم نشأ بعد نحو مائة عام من تلاميذهم من ذهب الى الكوفة فعلم بها فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى «مدرسة الكوفة» . وخليق بى أن أبين ذلك بشيء من التفصيل :

فيحيى بن يعمر (١٢٩) روى عن ابن عمر وابن عباس (١) ، ووصف بالعلم والأمانة . وعنبسة الفيل « تعلم النحو وروى الشعر وظرف (٢) »حتى صار — كما يقول الخليل — « أبرع أصحاب أبى الأسود (٣) ». وميمون كان رأس الناس بعد عنبسة ، وأبو عبيدة يجعله بعد أبى الأسود فى تأسيس العربية (٤) . ونصر بن عاصم (٨٩) كان « أحد القراء الفصحاء وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس » ويذهب بعضهم الى أنه أول من وضع العربية(٥) .

والرواة يذكرون أن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثى قد ابتكرا نقط الحروف لتميز المتشابه منها كالباء والتاء والياء والنون باشارة من الحجاج . وتلك خطوة كبرى تلى خطوة أبى الأسود فى ضبط العربية .

وهؤلاء هم عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى .

فأما عبد الله الحضرمى (١١٧) فأمره مع الفرزدق معروف اذ كان يتعقبه ويأخذ عليه سقطات نحوية ، وقد هجاه الفرزدق من أجل ذلك(٦) . وكان الناس يفاضلون بينه وبين معاصره أبى عرو بن العلاء ويقدمونه فى النحو ويقدمون أبا عمرو فى

---

(١) الفهرست ٦٢
(٢) اخبار النحو بين البصريين ص ٢٤
(٣) المزدهر ٢/٣٩٨
(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٢٥
(٥) اخبار النحو بين البصريين ص ٢١ . والفهرست ٥٩
(٦) انظر الشعر والشعراء ٢٥ طه شاكر .

اللغة وكان عبد الله « أعلم أهل البصرة وانقلهم ، فرع النحو وقاسه وتكلم فى الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه [١] .

وأما أبو عمرو بن العلاء (١٥٤) فمن أشراف مازن وأحد الأعلام فى القرآن واللغة ، وهو أحد القراء السبعة ، ويقول فيه أبو عبيدة : أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف [٢] . وأخذ عن نصر بن عاصم وعن يحيى بن يعمر وعن قارىء مكة عبد الله بن كثير .

وأما عيسى بن عمر فقد أخذ عن عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى وأبى عمرو بن العلاء ، وعد فى القراء البصريين ، وهو امام فى العربية والنحو ، ولعله أول من ألف فى النحو ، وقدوضع كتابين لم يصل الينا منهما أثر . والظاهر أن تلميذه الخليل بن أحمد قرأها وأعجب بهما فقال :

ذهب النحو جميعا كله ... غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك (اكمال) وهذا (جامع) ... فهما للناس شمس وقمر [٣]

والظاهر أنهما فقدا فى زمن متقدم لأن أبا سعيد السيرافى — وليس بينه وبين عيسى بن عمر أكثر من مائتى سنة — يقول : لم يقعا الينا ولا رأينا أحدا ذكر أنه رآهما [٤] .

ويذكرون عن ابن عمر هذا انه كان فصيحا ، ويقول عنه ابن قتيبة : كان صاحب تقعير فى كلامه واستعمال الغريب فيه [٥] .

وقد تلمذ على عيسى بن عمر الخليل بن أحمد وسيبويه وأبو زيد الأنصارى أئمة البصريين ، وأبو جعفر الرؤاسى الذى صار فيما بعد رأس الكوفيين ، وخلفه فى ذلك تلميذاه الكسائى والفراء . وبهذه الطبقة نصل الى ما سموه بالمذهب الكوفى .

---

(١) المزهر ٢/ ٢٠٠
(٢) بغية الوعاة ٨٩
(٣) فى أصول النحو لسعيد الافغانى ١٤١
(٤) الفهرست ٦٢
(٥) المعارف ٢٣٥

وكل واحد من هؤلاء مشــــهور ، فالخليل بن أحمد (١٧٥) كان الغاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، فقد بسطه وفرع على أصوله . وهو أول من استنبط العروض ، وعمل كتاب العين الذى تهيأ به ضبط اللغة . وهو أستاذ سيبويه ، وعامة الحكاية فى كتابه عنه ، فكلما قال سيبويه (وسألته) أو « وقال » من غير أن يذكر المسئول أو القائل فهو الخليل . هــذا الى نواح أخرى مجيدة تدل على عبقريته وفضله على العربية . ويقول عنه ابن جنى : سيد قومه وكاشف قناع القياس فى عمله[1] .

وأما أبو زيد الأنصارى (٢١٥) فكان ثقة صدوقا راوية ، وكان مقدما فى النحو على الأصمعى وأبى عبيدة ، ولكن غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ، وحولها يدور أكثر مصنفاته .

وأما سيبويه (١٨٠) فأمره مشهور وكتابه يعتبر قرآن النحو كما يقولون ، وكان فى أول أمره يطلب الحديث والفقه . وذات يوم كان يستملى على حماد بن سلمة فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس أحد من أصحابى الا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء . فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لحنت يا سيبويه ، ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه : لا جرم لأطلبن علما لا يلحننى فيه أحد أبدا[2] . وراح يطلب النحو فلازم الخليل بن أحمد وأخذ أيضا عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهما . وكان الخليل يؤثره ويقدمه على جميع أصحابه ، فدون سيبويه جميع ما أخذه عن الخليل ، ونقل فيه عن غيره من بعض البصريين والكوفيين ، فجمع فى كتابه ما لم يجتمع قبله فى كتاب وصارت كتب النحو بعده عالة عليه .

والكتاب مملوء بالقيـــاس والعلل والفروض مما يدل على أنه متأثر بفقه الحنفية وقد عاصر سيبويه تلميذى أبى حنيفة أبا يوسف ومحمدا! .

وقد روى « الكتاب » ونشره أبو الحسن الأخفش الأوسط ، وقد لزمه أثناء تأليفه ، وكان يقول فى ذلك : ما وضع ســـيبويه فى كتابه شيئا الا عرضه على . وكان الأخفش مخلصا لسيبويه ، فقد خرج الى بغداد ليناظر الكسائى انتصارا

---

(١) الخصائص ٣٦٦/١

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية للاسكندرى ١٠٢

لشيخه سيبويه لأنه كان من كبار المتكلمين المعتزلة ومن أحذق الناس بصناعة الجدل . ولننتقل الآن الى رأس مدرسة الكوفة أبى جعفر الرؤاسى .

أخذ أبو جعفر العلم فى البصرة على أئمتها كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، ولكنه لم يَنبُه مثل تلاميذها الآخرين ، وعاش بالبصرة غير معروف [١] . وهو أول كوفى ألف فى العربية ، وكل ما ورد فى كتاب سيبويه من عبارة « وقال الكوفى » انما يعنى أبا جعفر الرؤاسى هذا . ويقال أنه عرض كتابه « الفيصل » على أصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا اليه واستخزى هو من اظهاره . وهو يعد من قراء الكوفيين .

ولما رجع الى الكوفة وجد فيها عمه معاذ بن مسلم الهراء (١٨٧) مرجع الناس فى العربية فى هذه المدينة ، وكان يعنى بمسائل الصرف خاصة ، ويقال انه أول من وضع التصريف [٢] ، وتبعه فى ذلك من قرأ عليه من الكوفيين حتى قيل انهم فاقوا البصريين فيها . ومن هنا عدهم بعض العلماء واضعى على الصرف . وقد تخرج على الرؤاسى تلميذاه المشهوران الكسائى والفراء .

فالكسائى أعجمى الأصل وأحد القراء السبعة وامام الكوفيين فى العربية . وسمى الكسائى لأنه كان يحضر مجلس معاذ الهراء والناس عليهم الحلل وعليه كساء ورداء [٣] ، واسمه « أبو الحسن على بن حمزة » . وقد أخذ عن يونس البصرى ، وجلس فى حلقة الخليل ثم خرج الى بوادى نجد والحجاز وتهامة يأخذ عن الأعراب ، فانفد خمس عشرة قنينة حبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، ثم قدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفى مكانه يونس ، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره فى موضعه . ثم انتقل الى بغداد فعاش فى قصر الرشيد مؤدبا للأمين والمأمون ، ونال الحظوة وأقبلت عليه الدنيا . ولما خرج الرشيد الى الرى اصطحب معه الكسائى ومحمد بن الحسن الشيبانى فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ فى يوم واحد فقال الرشيد : دفنت الفقه والنحو فى يوم واحد [٤] .

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٨/١٢٣
(٢) المزهر ٢/٢٠٢
(٣) الفهرست ٦٥
(٤) انظر الفهرست ٦٥ ووفيات الأعيان ١/٣٣٠

وأما الفــراء فقد قرأ بالبصرة على يونس بن حبيب ثم قرأ على أبى جعفر الرؤاسى ثم لازم الكسائى ببغـــداد . واسم الفراء « أبو زكريا يحيى بن زياد الأسلمى » .

والذى حثه على الخروج الى بغداد شيخه الرؤاسى ، وقد صنف كتاب «معانى القرآن » الذى قال فيه أحدهم : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أحدا يريد عليه [١] . وكتبه التى تركها تدور حول مسائل من اللغـــة والنوادر والصرف والنحو والقرآن . ويقول ابن النديم : كان الفراء يتفلسف فى تأليفاته ومصنفاته، يعنى يسلك فى ألفاظه كلام الفلاسفة [٢] وكان غاية فى الذكاء والحفظ ، وقد أمر المأمون أن تفرد له حجرة من حجر دار الحكمة ووكل به من يكفيه كل حاجته حتى لا تتشوف نفسه الى شىء ، وصير له الوارقين فكان على وهم يكتبون حتى صنف كتاب «الحدود» . واسم الكتاب يدل على تأثره بالمنطق ، فهو يريد بالحدود التعاريف كحد الفاعل وحد المعرفة وحد الحال وهكذا ، وهذا يفسر لنا قول ابن النديم . وكان الفراء عظيم الفضل ، ولذلك يقولون : لولا الفراء لما كانت اللغة ويقول ابن الأنبارى : لو لم يكن لأهل بغـــداد والكوفة من علماء العربية الا الكسائى والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم اليهما [٣] .

وتكفينا هذه النبذة عن رجال المدرستين ، ولنحاول الآن تتبع الخلاف بينهما ومعرفة طبيعته متوخين الايجاز فنقول :

يشاهد أن ســـيبويه ينسب أقوالا كثيرة فى كتابه الى « الكوفى » وهو أبو جعفر الرؤاسى . ويبدو أن مرافقة الرؤاسى للخليل بن أحمد أستاذ سيبويه فى القراءة على عيسى بن عمر الثقفى خلقت بينهما نوعا من الأنس سمح للخليل أن يطلب من الرؤاسى كتابه ، فروى منه بعض أقواله لتلميذه سيبويه فأثبتها هذا فى كتابه . ويؤيد هذا أن الرؤاسى نفسه يقول : بعث الى الخليل يطلب كتابى

---

(١) الفهرست ص ٦٦
(٢) الفهرست ص ٦٦
(٣) طبقات الأدباء ١٩٨

فبعثت به اليه فقرأه[١] . ومن المحتمل جدا أن يكون سيبويه قد أخذ من الرؤاسى بعض أرائه فى النحو ابان اقامة الأخير بالبصرة .

وقد كان الخلاف يقع بين البصريين أنفسهم ، ولكنه لم يكن ذا خطر ، اذ لا يعدو أن يكون لونا من المذاكرة وحكاية الأقوال المخالفة والرد عليها . وكثيرا ما نرى سيبويه يورد لأشياخه أقوالا يخالفهم فيها . ويدلنا على ذلك قوله : وزعم الخليل .. وزعم يونس .

ومن المرجح أنه حدث خلاف بين الخليل والرؤاسى ، ولكنه كان خلافا لم تدنسه شوائب المادة ، فظل هادئا صافيا لأن كليهما كان عفيفا تقيا صالحا لا يأبه لأعراض الدنيا .

ثم شاء الله أن يقرب بنو العباس شيخ الكوفيين الكسائى وتلاميذه وأن يوكلوا اليهم أمر تربية أبنائهم من ولاة العهد والأمراء وأن يغدقوا عليهم العطايا ، وذلك لأن أهل الكوفة — على العموم — كانوا أخلص للعباسيين وأحسن سابقة معهم لأنهم كانوا شيعة بنى هاشم ، على عكس أهل البصرة ، فقد كان أكثرهم عثمانيين . هذا الى أن الكوفة قريبة من بغداد ، فقرع علماؤها أبواب العاصمة قبل أهل البصرة . ولذلك اتخذ الكسائى معلما لولدى الرشيد ، وتلميذه الفراء معلما لأولاد المأمون ، وابن السكيت تلميذ الفراء معلما لأولاد المتوكل . وقلما نجد بصريا يحظى بتقريب من قصر الخلافة كاليزيدى البصرى أحد معلمى المأمون، وكالمبرد الذى شارك ثعلبا الكوفى فى تعليم عبد الله بن المعتز .

وقد ذاق الكوفيون طعم الحياة الناعمة بجوار بيت الخلافة ، فحرصوا على ذلك أشد حرص ، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علما ، فأخذوا يحطون من قدرهم ويحولون بينهم وبين الحظوة المادية والأدبية لدى الخلفاء العباسيين لأنهم يعلمون علم اليقين أن علمهم قليل بجانب علم البصريين . ويقول أبو حاتم السجستانى : لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائى دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئا ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات الأعراب مطروحة لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على

---

(١) الفهرست ٢٤

ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قدوتهم واليه يرجعون [١] .

وأيا ما كانت المبالغة فى قول أبى حاتم ، فلا جدال فى أن الكوفيين كانوا دون البصريين علما ومعرفة ، وانهم أرادوا ستر هذا القصور بالتمكين لأنفسهم فى قصور الخلفاء والاجهاز على خصومهم فى غير ما هوادة أو ريث . ومن أجل هذا كان الكوفيون يتحرون أن تكون الملاحاة بينهم وبين البصريين أمام الخلفاء وكبار رجال الدولة ممن بيدهم الأمر والسلطان . وكانوا يتخـــذون كل الوسائل لكى يظفروا بالغلبـــة والنصر ليطامنوا من عزة البصريين ، ويرتفعـــوا هم فى أعين الخلفـــاء . وقد حـــدثت مناظرات كثيرة بين الفـــريقين ، وظـــل أوار هـــذه المناظرات مندلعا حتى أواخر القرن الثـــالث . وكان البصرى والكوفى لا يكاد يرى أحـــدهما الآخر حتى يحتدم النقاش بينهما فى أمور النحو واللغة جميعا . وقد أثبت الزجاجى فى أماليه وياقوت فى معجمه كثيرا من هذه المناظرات الطريفة . وأشهرها مناظرة الكسائى والأصمعى فى حضرة الرشيد[٢] ، وفيها يستخرج الكسائى للكلمة عدة أوجه للاعراب ، وقد سكت الأصمعى لأنه كان صاحب لغة ولم يكن صاحب اعراب . ومناظرة ابن الأعرابى والأصمعى عند سعيد ابن مسلم ، وكانت لغوية ، وفيها هزم الأصمعى[٣] . ومناظرة الكسائى وسيبويه بين يدى البرامكة[٤] . ومناظرة الكسائى واليزيدى وهو يحيى بن المبارك وقد اتصل بخال المهدى يزيد بن منصور الحميرى ليؤدب أولاده ، واليه نسب فقيل له (اليزيدى) . وكانت هذه المناظرة نحوية وجرت فى حضرة المهدى ، وهى تبين لنا مبلغ مغالطة الكسائى ، وقد غلبه اليزيدى [٥] .

وأخيرا منـــاظرة المبرد وثعلب [٦] ، وفيها يرمى كل منهما الآخر بالتمويه والكذب والادعاء .

---

(١) معجم الأدباء ١٣/١٩٠

(٢) انظر امالى الزجاجى ص ٣٤ ومعجم الأدباء ١٣/٨٣

(٣) أمالى الزجاجى ص ٣٩

(٤) معجم الأدباء ١٣/١٨٥ وأبو الفدا ٢/١٦

(٥) أمالى الزجاجى ص ٤٠ ومعجم الأدباء ١٣/١٧٨

(٦) أمالى الزجاجى ص ٣٩ ومعجم الأدباء ١٩/١١٨

وكانت الغلبة فى معظم هذه المناظرات للكوفيين بطبيعة الحال لأن الزمن كان يجرى فى ركابهم كما قلنا ، وكان يعينهم على الفوز هؤلاء الأعراب الذين كانوا يقفون بباب الخلفاء معتفين ، اذ يقال انهم كانوا يحملون على تأييد الكسائى بالرشوة أو بالايعاد ، وأحيانا كانوا يتقدمون هم أنفسهم بذلك ارضاء للخليفة ورجال السلطان الذين كانوا يميلون الى الكوفيين .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن هـــذه العصبية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصبية السياسية التى ظهرت بين المصرين [١] . وأنا أرى أنها كانت متأثرة بها وليست مؤسسة عليها لأن العلماء أيا ما كان موطنهم فى ذلك العصر كانوا فى تنافس لا ينقطع ولذلك كان أهل المصر الواحـــد يختلفون فيما بينهم كالذى كان يحدث بين يونس والخليل البصريين ، وبين المفضل الضبى وحماد الراوية الكوفيين . بل ان المبرد البصرى قد أفرد كتابا فى القدح فى كتاب سيبويه والغض منه .

ونستطيع أن نرد الخلاف بين المذهبين البصرى والكوفى الى أمرين :

السماع والقياس . ولنتحدث عن كل منهما بشىء من الابانة .

كان أكثر عرب البصرة من قيس وتميم ، وهاتان القبيلتان فى الذروة الأولى ممن يؤخذ عنهم ويقتدى بهم فى اللسان العربى . وكانت تحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تفسد لغتها بمخالطة الأعاجم .

وكانت هـــذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المربد) وهى — كما يقولون — عكاظ الاسلام ، فيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع .

وكانت البصرة الى جانب ذلك تقع على سيف البادية ، فقامت رحلات متبادلة بين علماء البصرة والأعراب ، فكان لذلك كله أثره فى فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم . ومن ثم ضربوا المثـــل بأدب البصريين ، وجعـــلوا هـــذا الأدب بمنزلة ما اختصت به الأمم طبيعة من الميراث التاريخى كفلسفة اليونانيين وصناعة أهل الصين وما اليها .

---

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٤

ولقد ضرب فى بوادى الجزيرة الأصمعى وأبو عبيـــدة ويونس وأبو زيد والخليل وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم . وكانوا يتحرون فى الأخـذ عن العربى سلامة لغته وسليقته وعن الراوى الصدق والضبط . وكان الخلفاء فى زمن بنى أمية لا يثقون الا فى علماء البصرة ، فقد حدث أهل البصرة أنهم كانوا يرون كل يوم راكبا من ناحية بنى مروان ينيخ على باب قتادة بن دعامة السدوسى (وكان أجمع الناس توفى سنة ١١٧) يســأله عن خبر أو نسب أو شعر (١) . ويصف أبو عمرو بن العلاء تدافع الناس وازدحامهم عليه فيقول : لو أمكنت الناس من نفسى ما تركوا لى طوبة (٢) .

أما الكوفة فهى أدخــل فى العراق وأقرب الى الاختلاط بالأعاجم ، ولغة أعرابها أقل سلامة من لغة أعراب البصرة لأن أكثرهم من عرب اليمن .

وكان يطرأ عليها ضعاف الأعراب ، فأسرع الفساد الى لغة أهلها . وبظاهر الكوفة كانت منازل النعمان بن المنذر والحيرة والخورنق والسدير وما هناك من القصور والمتنزهات . وكل ذلك غير طبيعى فى تاريخ الفصاحة العربية .

هذا الى أن بين الكوفة وجزيرة العرب بادية السماوة مما جعل رحلات علمائها الى الجزيرة شاقة عسيرة . وكان للكوفة سوق أرادوا بها أن تحاكى مربد البصرة وهى سوق (كناسة) ، لكنها كانت داعية الى افساد اللغة لا عاملا على صيانتها ، لأن الأعراب الذين كانوا يؤمونها غير فصحاء .

ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يغتمزون الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكواميخ (٣) . والمراد الأخذ عن أعراب البادية الجفاة وأعراب الأسواق الضعفاء الذين اختلطوا بأهل المدن . وقد ذكروا أن الكسائى ذهب الى البصرة مرة وأخذ العلم الصحيح عن أساتذتها ثم خرج الى بغداد فقدم أعراب الحليمات وهم غير فصحاء ، فأخذ عنهم شيئا فاسدا فخلط هذا بذاك فأفسده .

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١/٤١٠
(٢) المصدر نفسه .
(٣) تاريخ الرافعى ١/٣٧٠ . حرش الضب : صاده . اليربوع : دويبة . الشواريز : الألبان الثخينة . الكواميخ : المخللات يشهى بها الطعام .

كل هذه العوامل صرفت الكوفيين الى رواية الشعر ، فذلك هو الميسور لهم. ويبدو لى أن ذلك كان ميراثا فيهم منذ نزلها العرب ، ويدلنا على ذلك أن علياً كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج على أن يستعدوا لقتال أهل الشام فتخاذلوا عنه لم ير أبلغ فى ذمهم من صفة التشاغل بالشعر فقال يخطبهم : « اذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار ، تربت أيديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل [١] » .

ومن الطريف أن حماداً الراوية يثبت تأصل اشتغال الكوفيين بالشعر فيزعم أن المختار بن ابى عبيد لما خرج بالكوفة قيل له أن تحت القصر الأبيض الذى كان للنعمان كنزا ، فاحتفره فوجد الطنوج (أى الكراريس) التى كان النعمان أمر أن ينسخ فيها أشعار العرب فأخرجها ، قالوا : فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالشعر [٢] .

وكان الكوفيون الى جانب ذلك لا يعنون بصدق الراوى وضبطه كما كان يفعل البصريون ، ولذا كثر الموضوع فى أكثر رواياتهم . قال أبو الطيب اللغوى : الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم [٣].

وقصة خلف الأحمر مع الكوفيين معروفة [٤] . وراويتهم الأكبر حماد الراوية كالشمس شهرة فى الكذب والوضع [٥] ، وله قصة مشهورة مع المهدى بحضور المفضل الضبى وفيها يصرح فى غير خفاء بأنه قد نحل زهيرا بعض الأبيات [٦].

هذا فرق ما بين المدرستين فى أمر السماع وصحته والتحرى فيه . أما القياس فالأمر بينهما فيه مختلف كذلك ، فلقد جعل البصريون هدفهم عصمة اللسان من

---

(١) نهج البلاغة ١٧٠/١

(٢) الخصائص ٣٩٣/١

(٣) مراتب النحويين ١١٩

(٤) انظر وفيات الأعيان ٣٩٣/١

(٥) اقرأ كلمة المفضل الضبى عنه فى معجم الادباء ٣٦٥/١٠

(٦) انظر الأغانى ١٧٣/٥ بولاق .

الخطأ وتيسير العربيـة على من يتعلمها من الأجانب ، ولذلك نراهم يضعون قواعدهم على الأعم الأغلب . فاذا تنـاثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم مع ثبوت صحتها تأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة ، أو نصوا على شذوذها فتحفظ ولا يقاس عليها .

فالبصريون قد أحسنوا صنعا بمنهجهم هذا لأنهم حكموا المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم متماسكة متناسقة فى الجملة . ولا بد فى كل تنسيق من تشذيب يخرج بعض النتوء من الهيكل المشذب ، فكانوا يختارون من اللغة أشيعها وأقربها الى القياس . وهذا عمل جليل حفظ اللغة وصانها من العبث ، وقد بين هذا المنهج أبو عمرو بن العلاء اذ سأله رجل : أخبرنى عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال : لا ، فقال : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : احمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات [١] .

أما الكوفيون فانهم جمعوا كل ما وصلت اليه أيديهم من لغـات العرب بلهجات قبائلها ، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ ، وأخذوا عمن فسدت لغته من الأعراب وأهل الحضر ، ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه فتشتت قواعدهم ، ولم يعد لها ما يمسكها من نظام أو منطق ، وضاعت الغاية من وضع النحو وهى كونه أداة تيسير لتعلم العربية ، اذ أصبح لهم قواعد بقدر ما جمعوا من شواهد . ويقول ابن يعيش : فلو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين [٢] .

وأول من سـن للكوفيين هـذه الطريقة شيخهم الكسـائى ، وقد قال ابن درستويه أحد تلاميذ ابن قتيبة : كان الكسائى يسمع الشاذ الذى لا يجوز الا فى الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك [٣] . ولقد ضاق اليزيدى بالكسائى وبقياسه وبسماعه فقال :

كنا نقيس النحـو فيمـا مضى ... على لسـان العـرب الأول
فجـاءنا قـوم يقيسـونه ... على لغى أشياخ قطـر بل
ان الكسـائى وأشـياعه ... يرفون بالنحو الى أسـفل [٤]

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٥٩
(٢) شرح المفصل ٣٥٠ طبعة اوربا .
(٣) بغية الرعاة ٣٢٦
(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٤٤ ومعجم الأدباء ٢٠/٣١

ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون الى الوضع فيما لا يصيبون له شاهدا . وأنت تجد فى شواهدهم من الشعر مالا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر كالشاهد الذى يحتجون به على جواز دخول اللام فى خبر لكن ، وهو قول القائل المجهول : ولكننى من حبها لعميد .

وتنج عن ذلك كله أنهم كانوا يجيزون الأوجه الكثيرة فى الاعـــراب ولا يعدمون أن يجدوا لكل وجه شاهدا من لدنهم . ومن أجل ذلك كثرت روايتهم للشعر .

ومن غريب الأمر أن الكسائى هذا الذى كان يروى عن غير ثقات الأعراب كان يبكى خوف الزلل ، فقد دخل عليه الفراء يوما فوجده يبكى فقال ما يبكيك ؟ قال : هذا الملك يحيى بن خالد يوجه الى ليحضرنى فيســألنى عن شىء ، فان أبطأت فى الجواب لحقنى منه عتب ، وان بادرت لم آمن الزلل . قال الفــراء : يا أبا الحسن من يعترض عليك ؟ قل ما شئت فأنت الكسائى . فأخذ الكسائى لسانه وقال : قطعه الله اذن اذا قلت مالا أعلم[1] .

ونستطيع أن نجمل النزعتين بكلمة للأســتاذ أحمد أمين يقول فيها : ان البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وان طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا على اللغة . والكوفيون أقل حرية وأشد احتراما لما ورد عن العرب ولو موضوعا . فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغه يسودها النظام والمنطق ويميتوا كل أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أوموضوعة أو قول لا يتمشى مع المنطق . والكوفيون يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ من غير أن يهملوا شيئا حتى الموضوع ، فكل عملهم أن يضعوا الشىء الى لفقه ، فاذا كان للشىء الواحد جملة صور وضعوا له جملة قواعد » [2] .

فلا عجب اذا حكم الزمن لعلم البصريين بالبقاء لأنه الأضبط ، ولا عجب اذا كان نحو الناس بصريا حتى اليوم .

ويلاحظ أن الكوفيين قد اتجهوا فى العلم جهة الايضاح والتبسيط أكثر مما فعل البصريون حتى أن الفراء مؤدب أولاد المــأمون جعل النحو فى متناول

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣٥٧/١
(٢) ضحى الاسلام ٢٩٦/٢

الصبيان . وعلة ذلك — فيما يرى الأستاذ أحمد أمين — قرب الكوفيين من الخلفاء واشتغالهم بمهنة تأديب الأمراء [١] . وهذا تعليل مقبول .

وهناك أمر يجب أن نشير اليه وهو أن النحاة جميعا قد احتذوا فى أصولهم أصول الفقه عند الحنفية خاصة . ويصرح ابن جنى بذلك فيقول : ينتزع أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيبانى [٢] . وقد ظل هـذا الاحتذاء ملازما للنحاة فى مختلف عصورهم ، فالسيوطى الذى توفى سـنة ٩١١ يؤلف كتاب « الاقتراح » ويقول فى المقدمة : « ورتبته على نحو أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم ... فيعرف به القيـاس وتركيبه وأقسامه من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد ، الى غير ذلك على حد أصول الفقه ، فان بينهما من المنـاسبة ما لا خفاء به لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول » .

وقد ظل الخلاف محتدما بين المدرستين حتى أصبحت مدينة بغداد مورد طلاب العلم ومهبط العلماء من كل فج بسبب تشجيع الخلفاء للعلم واغداق المال على المشتغلين به واستقدامهم لتعليم الأمراء ، فالتقت فى مدينة بغداد ألوان من كل علم وفن اختلطت وامتزجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان فى النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون وسعى كل منهما فى نشر مذهبه ، حكى الأخفش : وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائى فصليت خلفه الغداة ، فلما انفتل من صـلاته وقعد بين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته فى جميعها» [٣] . وهذا يدل على أن المذهبين كانا يتسابقان فى بغداد .

وقد نشأ عن ذلك طبقة جديدة فى بغداد اختارت من المذهبين وكونت ماعرف بالمذهب البغدادى . ويلاحظ أن الطابع البصرى أغلب فى المذهب البغدادى على العموم ، وذلك لأن الاصالة التى فى المذهب البصرى قد فرضت نفسها عليهم فرضا . والبقاء للأصلح كما يقولون .

---

(١) ضحى الاسلام ٣١٢/٢

(٢) الخصائص ١٦٨/١

(٣) معجم الأدباء ٢٤٣/٤

وكان خاتمة الخلاف بين المدرستين ممثلة فى النزاع الذى كان بين أبى العباس ثعلب الكوفى المتوفى سنة ٢٩١ والمبرد البصرى المتوفى سنة ٢٨٥ . وبعدها زال هذا النزاع أو على الأقل زالت حدته ، وأصبحت مواطن الخلاف بين المدرستين تدرس على أنها مسائل تاريخية كما يصنع الأساتذة المشتغلون بالنحو فى هذه الأيام .

وقد ألف أبو البركات ابن الأنبارى كتابا فى الخلاف بين نحاة المصرين على نمط ما صنع الفقهاء فى كتبهم التى ألفوها فى الخلاف بين الحنفية والشافعية واسم الكتاب « الانصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » .

ويقول فى مقدمته : « سألونى أن ألخص لهم كتابا لطيفا يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويى البصرة والكوفة على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة ليكون أول كتاب صنف فى علم العربية على هذا الترتيب .. الخ » . وقد سرد ابن الأنبارى مائة وعشرين مسألة من المسائل التى كانت موضع خلاف بين علماء المدرستين . وللكتاب نصيب كبير من اسمه لأن المؤلف قد برأ نفسه من التعصب واعتصم بالانصاف . ويتوهم البعض أن الرجل يميل الى البصريين ولذلك يرجح آراءهم فى كثير من الأحيان ويرد على الكوفيين. والواقع أنه كان مصنفا أشد انصاف ، ولم يكن ترجيحه للمذهب البصرى ناجما عن التعصب ، وانما كان مبعثه الانصاف الذى تزكيه استقامة المذهب البصرى .